الأوطان ملح الكتابة

د. أمير تاج السر

كاتب وروائي سوداني

«الأوطان ملح الكتابة، الأوطان التي نعيش فيها حتى نشيخ وربما تضيعنا بجفائها، والأوطان التي نهاجر منها لسبب أو لآخر ونعود إليها أجسادًا بين الحين والحين»

في مقال له يقول أحد الدارسين الغربيين -وقد انبهر بأدب الروائي الياباني الشهير هاروكي موراكامي، وقام بزيارته بالفعل في طوكيو ليقترب من عالمه أكثر- إن ما يميز موراكامي، ليس سعة خياله ولا مثابرته الطويلة، وجديته في العمل على إنتاج نصوص بمئات الصفحات، ولكن كونك تحس بوجوده في تلك النصوص، ووجود وطنه كله معه.

وقد صحبه موراكامي في جولة خاصة بالسيارة في مدينة طوكيو -كما قال- وكان يشير إلى كل شيء يصادفانه، الجسور والطرق والمارة، امرأة تقف على رصيف، طفل على عربة أطفال مثلاً، ليقول بأنه كتب ذلك ذات يوم، وموجود في رواياته.

هذا الكلام المنمق لا ينطبق بالتأكيد على هاروكي موراكامي وحده، ولا على كتاب اليابان الذين يعرفهم الغرب والذين لا يعرفهم، فقط، ولكن ينطبق على كل من كتب وطنًا في نص، في أي بقعة من العالم الفسيح.

وإن كان من حظ موراكامي أن الغرب ارتفع بصيته المحلي كثيرًا، وحوله إلى صيت مدو لدرجة أن روائيين غربيين كثرا باتوا يتطلعون إليه باحترام كبير ويتمنون صحبته، ويتزاحم القراء في أي مكان انتظارًا للحصول على نسخة من كتاب جديد يعلن عن صدوره.

وقد ذكر الدارس الذي التقاه أيضًا أن موراكامي يقبع الآن في قلب السياحة اليابانية، إذ توجد نماذج من شخصياته وعبارات كتبها، وحتى أكواب للعصير التي ربما استخدمتها الشخوص في نص له، من ضمن ملصقات هذه السياحة.

قد يبدو ذلك الاحتفاء الخيالي غريبًا على بلد كاليابان، عرف ببرمجة الأدمغة وصناعة التكنولوجيا المتطورة وتصديرها، وشعبه كله إما يعمل وإما يستريح قليلاً ليعاود العمل، لكن بالقطع توجد التفاتات للثقافة، وفي هذا البلد يوجد كتاب كبار مثل: أوسامو دازاي ويوكو ميشيما وياسوناري كواباتا، والمخرج الشهير: أكيرو كوراساوا، الذي وُصف ذات يوم بأنه أكثر المخرجين شعبية في العالم.

أعود لمسألة الأوطان، لأنها في رأيي الشخصي من يهب الإبداع أولاً وأخيرًا، وكل من يكتب أو يرسم أو يصنع شريطًا سينمائيًا عن الوطن سيغدو حقيقيًا وصادقًا.

ففي زمن الشدة والتبعثر، تبدو الكتابة شديدة ومبعثرة وصادقة، وأنت حين تصف وطنًا محطمًا تصفه محطمًا، وحين تصف الفقراء تصفهم كما يوصف الفقراء، وحين تنتقد سياسيًا غير عادل تنتقده بنبرة حقيقية. الكوارث هي الكوارث، والنواح الذي يتفصد من الحلوق هو النواح الحقيقي بكل تأكيد.

وفي زمن الرخاء والاستقرار -على الجانب الآخر- ستغدو الكتابة مستقرة وعامرة بمفردات الحياة المسترخية، هنا سيوصف الليل بأنه ليل العشاق الفرح، وسيوصف النهار مثلاً بأنه نهار الضوء، بلا زيادة ولا نقصان.

في كثير من الأحيان، خاصة في بلادنا العربية تبدو الأوطان جافية بالنسبة لمبدعيها، تبدو الأحضان ضيقة، والنزيف الكتابي بلا ثمن ولا احتفاء، لكن ذلك لا يوقف الإبداع في أي مرحلة من مراحله، ولا يكون الوطن لا وطنًا، حتى بالنسبة للذين هاجروا أو اغتربوا عن بلادهم.

فحين يرسم هؤلاء يرسمون باستدعاء الذكريات،

وحين يكتبون قصيدة أو نصًا روائيًا يكتبونه من إيحاء زمن عاشوه في بلادهم، أو متغيرات سمعوا بها، وأجادوا الاحتفاظ بها في الذاكرة، خلافًا للمتغيرات اليومية التي تحيط بحياتهم الجديدة في المهاجر.

وخير مثال لذلك أن روائيًا معروفًا مثل الأفغاني خالد حسيني -الذي هاجر صغيرًا إلى أميركا ويكتب بلغة وطنه الجديد- لم يخرج في نصوصه عن وطنه الأصلي قط، وكذلك كتاب من الجزائر والمغرب وتونس ومصر وسوريا عاشوا سنوات طويلة في الخارج، وتعيش أعمالهم الإبداعية في وسط الطرق الوعرة لبلدانهم. وحين نقرأ نصًا للألماني السوري رفيق شامي نقرأ نصًا سوريًا خالصًا، تتسكع فيه الشخصيات في الشام بكل خصوصياته.

في زيارة لي لبلدي ذات صيف، جلست مع شاعر كان معلمًا في المدارس الابتدائية فيما مضى، والآن بلا وظيفة في بلد لا يحيا فيه الإنسان مسترخيًا حتى لو كان يملك وظيفة. كان بلا مال ولا بيت يستقر فيه ولا هندام يميزه، لكنه كان شاعرًا حقيقيًا، تمامًا مثل موراكامي بفارق الشهرة والوطن.

حتى حديثه المر، كان حديثًا وديًا عن وطن لا يضمر له شرًا برغم كل شيء، وبرغم أن عشرات من الشعراء جاؤوا بعده واكتسبوا حظوظًا أكثر من حظه. كل قصائده -بحلوها ومرها، وهجائها ومدحها- كانت قصائد للوطن ومن الوطن.

وأذكر أن ناقدًا معروفًا في السودان ذكر مرة في حوار -حين سئل عن كتّاب بلاده المهاجرين في المنافي وعن رأيه في كتاباتهم- أن هؤلاء لا ينتمون للوطن في شيء، ما داموا قد اتبعوا خيار الهجرة، وأن عليهم أن يكتبوا عن أوطانهم الجديدة لأنها تمثلهم أكثر.

على الذي يوجد في هولندا -حسب رأيه- أن يكتب عن أجواء هولندا، والذي في أميركا أن يكتب عن مجتمع أميركا، والذي يعيش في الخليج أن يكتب عما يعيشه هناك.

هذا الناقد بلا شك -إن كان يقصد أو لا يقصد- يحاول أن ينزع ثياب الوطن بسهولة عن مفردات ارتدتها منذ الصغر ولا يمكن انتزاعها أبدًا. ولعله يغير تلك النظرة حين يقرأ لجمال محجوب الذي يعيش خارجًا منذ زمن طويل، وكتب عن الوطن ملبيًا لفوران حليب أرضه الذي رضعه طفلاً، وكذا الزميلة ليلى أبو العلا، وهي حتى في كتابتها لروايات تدور أحداثها في الغرب، إلا أنها روايات سودانية بامتياز.

إذن الأوطان ملح الكتابة، الأوطان التي نعيش فيها حتى نشيخ وربما تضيعنا بجفائها، والأوطان التي نهاجر منها لسبب أو لآخر ونعود إليها أجسادًا بين الحين والحين، لكن تظل هي الأصل في كتابتنا، في رسوماتنا، في نحتنا، في تطلعاتنا، الشيء الحقيقي الذي لن يميز موراكامي وحده، ولكن يميز كل من خطا في سكة الإبداع في أي زمان ومكان.

هاروكي موراكامي

«في كثير من الأحيان، خاصة في بلادنا العربية تبدو الأوطان جافية بالنسبة لمبدعيها، تبدو الأحضان ضيقة والنزيف الكتابي بلا ثمن ولا احتفاء، لكن ذلك لا يوقف الإبداع في أي مرحلة من مراحله»

«الأوطان في رأيي الشخصي من يهب الإبداع أولاً وأخيرًا، وكل من يكتب أو يرسم أو يصنع شريطًا سينمائيًا عن الوطن سيغدو حقيقيًا وصادقًا»

نهضة التعليم

د. وليد فتيحي

﴿وشاء الخالق أن تكون المعجزة همسة في الغار، لم يسمعها الله إلا لنبي آخر الزمان. إنها أول أمر.. أول فرض نزل به القرآن، فأصبحت شعار أمة.. (أمة اقرأ).. إنها ثورة العلم على الجهل.. أمة أدركت أن الأخذ بالعلم من أسمى صور العبادة للرحمن.. أمة أخرجت بالعلم العلماء، فتحقق بهم أسرع وأغرب طفرة حضارية في تاريخ الإنسان. إنها البداية.. إنها النهاية، وكل ما بين البداية والنهاية يذكرنا بأول كلمة نزل بها القرآن.﴾

التعليمي أو منظومة التعليم هو كيفية رفع مستوى الملايين من المدرسين، أو: هل هناك طريقة نستطيع بها أن نحرر التعليم لنجعل الطالب يمتلك مفاتيح المعرفة في أي مكان وأي وقت يريد؟ وأن تكون المعلومة متاحة للكل بأفضل طرق إيصالها وشرحها؟ وأن نحمي الطالب من أن يصبح رهينة وضحية معلم غير فعال؟

من أوائل من تنبه إلى هذا الاحتياج ولبى نداء الحاجة شاب أمريكي من أصل هندي اسمه سلمان خان عرف بتفوقه وحصل على درجة الكمال في امتحان السات SAT ويحمل ثلاث درجات من معهد ماساتشوتس MIT (Massachusetts Institute of Technology) وماجيستير في الهندسة وعلوم الحاسب الآلي، وكذلك ماجستير من كلية هارفارد للأعمال.

بدأت القصة في أواخر عام 2004م حيث بدأ في تدريس مادة الرياضيات لأقارب له عبر الإنترنت وعندما زاد طلب الأقرباء والأصدقاء للمساعدة، قرر توزيع الدروس على موقع يوتيوب وأنشأ عام 2006م حسابًا على اليوتيوب، وبسبب شعبية الفيديوهات المعروضة وشهادات التقدير التي تلقاها من الطلاب، قرر سلمان ترك عمله كمحلل مالي في صناديق الاستثمار في أواخر 2009م وتفرغ لتطوير قناة أكاديمية خان على اليوتيوب بدوام كامل.

واليوم تعد أكاديمية خان التعليمية أشهر نموذج عالمي في هذا المجال، فتقوم بتوفير التعليم عالي الجودة لأي شخص في أي مكان في العالم. وقد حققت أكثر من 42 مليون زائر، ويوفر موقعها على الإنترنت أكثر من ثلاثة آلاف وستمئة محاضرة صغيرة بمعدل عشر دقائق للحلقة عبر فيديوهات مخزنة على اليوتيوب لتدريس مواد مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء والتاريخ والفلك والاقتصاد، إضافة إلى أكثر من 123 وحدة تدريبات آلية مع تقييم مستمر.

وقد ابتعد خان عن أسلوب المدرس الذي يشرح الدرس على السبورة بتقديم المحتوى بطريقة توحي بالجلوس بجانب الطالب والعمل معه على حل المشكلة، فلا يرى الطالب وجه المدرس إنما يرى كتابته ورسوماته البيانية على السبورة الإلكترونية والفيديوهات التعليمية، حيث بينت الدراسات والمشاهدات أن هذه الطريقة هي أكثر الطرق فعالية للتعليم، وبذلك يستطيع الطالب إعادة تشغيل الفيديو حتى يستوعب الموضوع بلا خجل، وأحدث خان تحولاً وثورة حقيقية في العملية التعليمية حول العالم.

أحدث خان هذا التحول لأنه انتقل من التعليم التقليدي التلقيني إلى التعليم التفاعلي النشط والذي بينت الدراسات أنه يزيد من استيعاب الطلاب للمادة بنسبة تتعدى خمسين بالمئة، نظرًا لقدرته على تفعيل أجزاء الدماغ المسؤولة عن الفهم والحفظ بطريقة أكثر فعالية، وذلك لانسجامه مع الطريقة الطبيعية الفسيولوجية لانتقال المعلومات في أجزاء الدماغ في عملية التعلم.

ويتطلع خان لأن يجعل من أكاديميته المدرسة الافتراضية الأولى المجانية في العالم، حيث يتاح لأي إنسان أن يتعلم ما يريد بالمجان، وقد استحق خان بذلك أن تصنفه مجلة (التايم) كواحد من مئة شخصية عالمية أثرت بفعالية في حياتنا المعاصرة.

نموذج آخر حذا حذو أكاديمية خان فأنشئ عام 2009م موقع إلكتروني من قبل ريتشارد لادلو Richard Ludlow وأطلق عليه اسم أكاديمية الأرض (Earth Academy) والذي يقدم فيديوهات محاضرات مجانية عبر الإنترنت على أيدي نخبة من الأساتذة من جامعات مرموقة مثل:

هارفارد وام آي تي وبرينستون وميتشجان وستانفورد وكاليفورنيا وباركلي ويل

Harvard.MIT.Princeton University .University of Michigan .Stanford University .University of California .University of California.Berkeley .Yale University

وفي عام 2011م بدأت تركيا بتطبيق أكبر مشروع استثماري في التربية والتعليم في تاريخها بقيمة 7 مليارات، وأطلق عليه اسم مشروع (الفاتح) تيمنًا بالقائد العظيم محمد الفاتح، ليتم توزيع القارئ الإلكتروني (آي باد) مجانًا مشمولاً ببرنامج الفاتح على 15 مليون طالب ومليون مدرس وتركيب ألواح ذكية بدلاً من الألواح السوداء في 570000 صف دراسي و42000 مدرسة.

ونقل التعليم في تركيا إلى عصر التقنية، لتصبح الكتب الدراسية كلها مضمنة في جهاز الآي باد بالفيديوهات التوضيحية والصور والخرائط والرسوم البيانية. وبذلك يأتي الطالب إلى المدرسة ومعه الآي باد فقط، لا عشرات الكتب التي ترهق كاهله، وتؤدي لأضرار جسدية في الظهر والعمود الفقري خاصة في المراحل الأولى كما تبين الدراسات.

أما في عالمنا العربي فقد تم إنشاء أكاديمية التحرير في عام 2012م بعد ثورة 25 يناير بمصر بمجهودات شبابية على غرار أكاديمية خان من خلال جهود الشاب المصري وائل غنيم وشعارها (ثورتنا على المعرفة التقليدية) وتهدف إلى تحرير المعرفة من شكلها التقليدي عن طريق فيديوهات مبتكرة وجذابة ومنهج مجاني على اليوتيوب، مما يساعد على إتاحة العلوم للجميع في أي وقت ومكان وأي جهاز ورفع فعالية التعليم، وهي تعتمد على الأنظمة المفتوحة التي تزدهر بإسهامات جميع المشاركين وتسعى لأن تصبح النسخة العربية من أكاديمية خان العالمية في جميع التخصصات.

نعود للمعلم والذي يعد من أهم عوامل إنجاح المنظومة التعليمية.. ما هو تأثير تطبيق هذه البرامج التعليمية عليه؟ وما هو دوره؟ إنه من الصعب أن نرتقي بملايين المعلمين في بضع سنين إلى المستوى الذي نأمله.

وبما أن هناك مجموعة من المعلمين المتميزين المبدعين ذوي الملكات الخاصة والقدرات الفائقة في التدريس بأسلوبهم الشيق الذي يأسر الطلاب ويوصل المعلومة لهم بكل سلاسة ويسر، وبما أنهم ندرة، فإذا تم تفعيل هذه الندرة المبدعة في تدريس هذه المواد بأحدث الطرق التقنية والوسائل التوضيحية المتقدمة والفيديوهات وتم تغطية كافة المواد من الابتدائي إلى الثانوي وضمنت في جهاز آي باد، فليس الطالب وحده هو الذي سيستفيد وتزداد فعاليته وتحصيله الدراسي، وإنما الأساتذة أيضًا سيتعلمون..

سيتعلم الأساتذة من الشرح النموذجي، ليصبح هذا الشرح المسجل هو المثال والقدوة للملايين المعلمين، وهذا أكثر فعالية وتأثيرًا من أي دورات تدريبية تقليدية، ويصبح المعلم حريصًا على أن ينافس في الأداء مع الشرح النموذجي الذي بين أيدي الطلاب، ويصبح الطالب حارسًا على جودة التعليم فلا يقبل بأقل مما يرى، ونقدم كذلك لأولياء الأمور خيار المساهمة والمشاركة في المراجعة والشرح بكل يسر وسهولة دون اللجوء إلى الدروس الخصوصية في المنزل، فالمنهج متاح بين أيديهم في أجمل صوره وأكثرها فعالية بالصوت والصورة.

بل سيصبح المعلم أكثر فعالية، حيث إن الطلبة سيأتون وقد استمعوا إلى الدرس، ويصبح دور المعلم ليس إعطاء المعلومة وإنما تعليم أمور أخرى لا تقل أهمية، وهي الحث والتحفيز والتشجيع على المشاركة والمناقشة والحوار وممارسة التطبيقات العملية على المادة والدعم المعنوي والمادي.

بل ومحاولة إيجاد طرق لتجسيد وتحريك وتفعيل المفاهيم والأفكار الجديدة التي كونتها المعلومة في عقل الطالب، أي تحويل الأفكار من النظرية التجريدية إلى تطبيقات عملية محسوسة وملموسة، وهي بمثابة الاختبار والفحص والامتحان العملي النشط للنظريات والأفكار التجريدية، وبذلك تكون قد اكتملت وتحققت دائرة التعلم في دماغ المتعلم من استقبال المعلومة إلى التفكر فيها لتكوين المعرفة وأفكار جديدة إلى تفعيل هذه المفاهيم والأفكار في الدماغ إلى أنشطة عملية حركية.

هناك دراسات عديدة تؤكد أهمية تقييم المعلم ومكافأته بسخاء لا على سنوات خبرته وشهاداته وإنما على التحصيل الدراسي وأداء طلبته في الاختبارات الموحدة على مستوى الدولة، وبذلك نكافئ المعلم الفعال المتمكن الذي يحمل اهتمامًا حقيقيًّا بنجاح طلبته، وينجح في إيقاظ شعلة حب المادة في قلوبهم ويرفع من حماسهم للعلم والتحصيل.

إن الطريقة التقليدية للتعليم التي تعتمد على أحادية المنهج وتنتج نسخًا متشابهة من الأشخاص ذوي الأهداف والرؤية النمطية، أصبحت غير مقبولة لهذا الجيل، فهي لا تفتح المجال للاختلاف والإبداع والتعددية في الأهداف والتوجهات للمتعلمين، ولا تضع بالاعتبار اختلاف القدرات والمهارات والاحتياجات من شخص لآخر.

إننا في أمس الحاجة في عالمنا العربي لثورة في التعليم، وليس علينا أن نبدأ من الصفر، بل نبدأ من حيث انتهى الآخرون، خاصة وأن الدراسات والشواهد والنتائج كلها تؤكد نجاح هذه المشاريع التعليمية الرائدة للنهوض بالمنظومة التعليمية طلاباً ومعلمين.

ولن يكون هناك ما يعود على المجتمع بعائد استثماري أعلى من الاستثمار في التعليم الأولي، ففي هذه السنوات يتم تشكيل دماغ الإنسان وتكوين الشبكات العصبية التي بها يستطيع أن يفكر ويحلل ويخطط للمستقبل.

وكل عام يمر على الطالب بين يدي معلم ضعيف غير فعال هو إهدار لعقل الإنسان. إن هذا النوع من الاستثمار إن لم يوضع في تلك السنوات الأولى.. سنوات التشكيل.. تشكيل عقل الإنسان.. عقل الطالب المدرسي.. طالب اليوم.. رجل وامرأة الغد، فلن تجدي عشرات الأضعاف من الاستثمارات لاحقًا لتعويض ما ضاع في السنوات الأولى عندما كان الدماغ أكثر تأهيلاً وتهيئة للتشكيل والتغيير والتطور المذهل لو أنه أحسن رعايته والاستثمار فيه.

فمتى سنرى في عالمنا العربي ثورات تعليمية كتلك التي يشهدها العالم من حولنا؟

ومتى سندرك أن رأس المال الحقيقي الذي نملكه هو الإنسان الذي يصقل اليوم ويشكل بطرق أقل ما يمكن أن نصفها بأنها متأخرة ومتخلفة عن كثير من شعوب أخرى قد لا تملك ما نملك من ثروات ومقدرات طبيعية واستثمارات واحتياطات مالية.

لمشاهدة ومحياي (نهضة التعليم)
اضغط هنا
أو
اضغط هنا